بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تمهيد :

عاش أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار بين سنتي ٥٩٥/١١٩٩ و٦٥٨/١٢٦٠، أي ثلاثاً وستين سنة هجرية (إحدى وستين سنة ميلادية)، وهو عمر طويل نسبياً، وأتيحت له الفرصة ليصيب من العلم أوفر نصيب سمح به زمانه، ووصل إلى الوظائف الكبرى في عنفوان شبابه، وظل بعد ذلك صدراً في بلده بلنسية وفي كل مكان حل فيه، وأوتي من الذكاء وبعد الفهم وقوة الذاكرة وبلاغة اللسان ما كان كفيلا بأن يهيئ له حياة سعيدة، أو مستقرة على أقل تقدير، ولكنه خُلق ذا طبع قلق ونفس حائرة وقلب ذي طماح بعيد المطارح، فلم يقر له حال منذ أيفع إلى أن مات، ولم يسعد من حياته الطويلة إلا بفترات قصار معظمها وهو دون الثلاثين، ثم ما زالت الخطوب تنزل بساحته وما زال يعينها على نفسه حتى تكدرت حياته ما بقي له من أيام العمر بعد ذلك، وانتهى به الأمر إلى مصرع فاجع على يد من خدمه وملأ الصفحات بمديحه؛ فلو أننا بحثنا عن مثال لرجل لم ترحمه أيامه ولا رحمته نفسه لما كان هذ المثال خيراً من ابن الأبار.

ولكن الأجيال التالية لعصر ابن الأبار كانت أرفق به من أيامه ومن نفسه، فتعاقب الناس على إنصافه وتكريمه والإشادة بذكره، فترجم له أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني (ت ٧١٤/١٣١٤ ـ ١٣١٥) في «عنوان الدراية» (ص١٨٣ـ١٨٧) وابن خلدون في تاريخه (٦/٢٨٣ـ

٢٨٥) ، والمقرى فى « نفح الطيب » (٣٪٣٤٦–٣٤٧) و « أزهار الرياض » (٣٪٢٠٥) ، وأبو علي محمد بن إبراهيم اللؤلؤى الزركشى فى «تاريخ الدولتين» (ص ٢٠ – ٢٧) ، ومحمد بن شاكر الكتبي فى « فوات الوفيات » (بولاق، ٢٪٢٨٢–٢٨٤) ، وذكر حاجى خليفة بعض مؤلفاته فى أربعة مواضع من كشف الظنون (٢٪١١٥ و٢٣٦ ، ٣٪٥٢٧) .

هؤلاء جميعاً أثنوا على ابن الأبار وقدروه قدره الصحيح كواحد من أكبر من أنجبهم الأندلس فى ميادين التاريخ والأدب وعلوم الإسلام ، وأنصفوه من قاتله وأجمعوا على أنه قتل مظلوماً ، بل وصفه بعضهم بالشهيد .

وفاقت عنايةُ المحدثين بابن الأبار عنايةَ الأقدمين ، فتبينوا من فضائله كمؤرخ وكاتب أكثر مما تبينه السابقون ، وصاحب الفضل فى ذلك دون شك هو المستشرق الهولندى المعروف راينهارت بيتر – آن دوزى ، فقد وقف عنده وقفة طويلة فى كتابه الصغير المسمى « مقدمة للبيان المغرب » :

Introduction au Bayan al - Moghrib, Leyde 1848.

وقرر أنه مؤرخ ثبت دقيق جدير بكل ثقة ، وأنه حافظ جمع فأوعى ، وحفل صدره من العلم بالمغرب والأندلس وبتاريخ الإسلام عامة ما لم يصل إليه إلا القلائل من علماء القرن السابع الهجرى ، وأن أسلوبه الأدبى قوى جميل فيه فحولة ندرت بين أهل عصره .

ثم عاد فأكد هذا الرأى ووفى ابن الأبار حقه من التقدير فى تعليقاته على الترجمة اللاتينية للنصوص الخاصة ببنى عباد أصحاب إشبيلية :

Scriptorum Arabum Loci de Abbadides, (Lugdoni Batavorum, 1852) II, 46—47.

ونشر تراجم الأندلسيين من الحلة السيراء فى كتابه المسمى :

Notices sur quelques Manuscrits Arabes (Leyde, 1847—1851) pp. 29 sqq.

مع مقدمة قصيرة عن ابن الأبار أحال فيها إلى ما كتبه عنه فى مؤلفاته الأخرى .

وكان نشر دوزى لهذه القطعة من الحلة ، بالإضافة إلى ما نشره منها فى جامع الكتابات عن بنى عباد منبهاً لأهل العلم إلى قيمة ابن الأبار وأهمية ما كتب ، فأقبل الناس يبحثون عما بقى من آثاره يدرسونها بالعناية الجديرة بها وينشرون ما تيسر لهم منها . وأول من فعل ذلك بعد دوزى ماركوس جوزيف مولر فى كتابه المسمى :

Beiträge Zur Geschichte der Westlichen Araber. (München, 1866) Heft I, 161—192; heft II, 193—360.

ووقف مولر بتراجمه عند أحمد بن أبى الأغلب محيلا بعد ذلك إلى قطعة من « الحلة » كان قد نشرها أمارى فى المكتبة الصقلية (ص ٣٣ وما يليها) ، وواضح أن مولر كان ينوى متابعة نشر تراجم أهل المغرب من « الحلة » فى جزء ثالث من كتابه ، ولكنه لم يفعل ، فبقيت هذه التراجم دون نشر .

وكان دوزى قد نشر بضع تراجم أندلسية من « الحلة » ذيولا على بعض أبحاثه فى كتابه المعروف :

Recherches sur l'histoire et la Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge, 3e éd. Paris, Leyde 1881. Vol. I., appendices X p. XIX; XX, p. XLVIII; XXIV, p. LVI — vol. II, appendices II, p. XXVII; IX, p. XLVI.

وكان الراهب اللبنانى ميخائيل الغزيرى نزيل إسبانيا وواضع الفهرس الأول للمخطوطات العربية فى مكتبة الإسكريال قد نبه إلى أهمية مخطوط « الحلة السيراء » الموجود بهذه المكتبة ونشر ترجمة لاتينية لقطعة صغيرة منه :

M. CASIRI *Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis*, Vol. II, p. 163, n. MDCCXXV.

ونشر كذلك قطعة من مخطوط كتاب آخر لابن الأبار هو التكملة :

Ibidem, Vol. II, n. MDCCXXX.

ثم عكف المستشرق الإسبانى فرانثيسكو كوديرا على نشر مخطوطين لابن الأبار ، أولهما « المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصدفى » ، المكتبة الأندلسية رقم ٤ :

Bibliotheca Arabico Hispana; tomus IV, Madrid 1886.

وثانيهما كتاب التكملة لكتاب الصلة :

Bibliotheca Arabico Hispana, t. V—VI, Madrid 1889.

وقد نشر فى هذين الجزءين التراجم التى يضمها المخطوطان رقم ١٦٧٥ و١٦٧٨ من مخطوطات مكتبة الإسكريال وهى التراجم من حرف الجيم إلى حرف الميم (عدا بعض الحروف بين العين واللام) . وقد عثر على هذه التراجم الناقصة فى مخطوط يحمل رقم ١٧٣٥ فى مكتبة الجزائر ، فقام على نشرها م . ألاركون وأنخل جنثالث پالنثيا فى مدريد سنة ١٩١٥ :

M. ALARCON y C. A. G. PALENCIA : *Apéndice a la edición Codera de la Técmila de Aben al-Abbar* en *Miscelanea de Estudios y Textos Arabes*, Madrid 1915.

وبقيت الحروف من الألف إلى الثاء ثم من اللام إلى الياء ، فأما الأولى فقد عثر عليها ألفريد بِل ومحمد بن شنب فى فاس ونشراها فى الجزائر سنة ١٩٢٠ :

IBN AL-ABBAR, *Técmilat as-Sila*. Texte arabe d'après un ms. de Fez. Tome I complétant les deux volumes édités par Codera, Alger 1920.

وعثر محمد بن شنب على قطعة تضم فاتحة التكملة فنشرها فى المجلة الإفريقية سنة ١٩١٨ :

M. BEN CHENEB, *L'Introduction d'Ibn al-Abbar à sa Técmila*. Revue Africaine, 1918 p. 300.

وقد قدم كل من كوديرا وألاركون وجنثالث پالنثيا وألفريد بِل ومحمد ابن شنب لما نشروا من نصوص لابن الأبار بمقدمات ودراسات ضافية ، نخص منها بالذكر مقدمتى كوديرا للمعجم ولما نشر من التكملة ، فهما دراستان شاملتان عن ابن الأبار وحياته وأعماله وقدره بين من أنجب الأندلس من أعلام .

وعند ما كتب فرديناند ڤستنفلد كتابه المعروف عن مؤرخى العرب اختص ابن الأبار بمادة طيبة :

F. WÜSTENFELD, *Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke*. Göttingen, 1882, p. 129.

وفى الترجمة الإنجليزية التى قام بها بشكوال دِ جيانجوس للمجلد الأول من « نفح الطيب » للمقرى (طبعة أوروبا) تعليق طويل عن ابن الأبار وأعماله :

PASCUAL DE GAYANGOS, *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain*, II, 528.

وكتب ميكيلى أمارى مادة قصيرة عن ابن الأبار فى الجزء الأول من تاريخ مسلمى صقلية ، ثم نشر قطعة منه خاصة بفتح صقلية فى المكتبة الصقلية (رقم ٥٢) ، وأشار إليه سيمونيت فى معجمه :

F. J. SIMONET, *Glosario de voces ibericas y latinas usadas entre los Mozarabes*. Madrid, 1888, CCXXIV.

وعندما كتب البارون ڤون شاك كتابه البديع عن شعر عرب الأندلس وصقلية وفنهم ، أشاد بابن الأبار وترجم إلى شعر ألمانى سينيته المشهورة فى استصراخ أبى زكريا الحفصى لنجدة الأندلس :

ADOLPH FRIEDERICH VON SCHACK : *Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sizilien*. 3 Auflage, Stuttgart, 1871.

وعن شعر ڤون شاك ترجم نفس القصيدة إلى شعر إسبانى خوان ڤاليرا عند ما ترجم الكتاب كله إلى الإسبانية :

JUAN VALERA, *Poeséa y Arte de los Arabes en Espana y Sicilia*. 3a ed. Sevilla 1881, I, 162.

وأوفى مادة كتبت عن ابن الأبار فى غير العربية هى تلك التى كتبها پونس بويجس فى معجمه عن المؤرخين والجغرافيين من أهل الأندلس :

FRANCISCO PONS BOIGUES, *Ensayo bio-bibliográfico sobre los Historiadores y Geógrafos arábigo-espanoles*. Madrid, 1898, nu. 253 pp. 291–296.

ونضيف إلى هذا العرض لما كتب عن ابن الأبار فى غير العربية مادتى كارل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى، ج١ / ٤١٦ والملحق ١ / ٥٨٠ (يلاحظ أنه أخطأ فى اسمه فجعله أبا على بن محمد بن على بن أبى بكر بن الأبار) ، ومادة دائرة المعارف الإسلامية فى طبعتها الأولى وقد كتبها محمد بن شنب (١/ ٣٧٤ ب و٣٧٥ ا) ، والفقرة الخاصة به من كتاب تاريخ الفكر الأندلسى (فقرة رقم ٨٦ ص ٢٧٧ — ٢٨٠ من ترجمتنا العربية) ، ثم المادة القصيرة التى اختصه بها كلمان أوار فى كتابه عن تاريخ الأدب العربى (ص ٢٠٤) .

أما المحدثون من العرب ، فأول من نبه منهم إلى مكانة ابن الأبار هو جرجى زيدان فى كتابه القيم عن «تاريخ الأدب العربى» ، فقد اختص ابن الأبار بمادة قصيرة فى الجزء الثالث من ذلك التاريخ (ص ٨٤ من الطبعة الجديدة بتحقيق الدكتور شوقى ضيف) أشار فيها إلى مكانته كمؤرخ ، وهى على صغرها مادة طيبة تضع ابن الأبار فى مكانه بين مؤرخى الغرب الإسلامى فى القرن السابع الهجرى .

ثم تناول ابنَ الأبار المرحومُ الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فكتب عنه كتاباً ضخماً (٣٨٤ صفحة) نال به جائزة مولاى الحسن لسنة ١٩٥١ ، ونشر الكتاب فى نفس العام فى تطوان ، وعلى الرغم من أن هذا التأليف كان أول عهد المؤلف بالدراسات الأندلسية ، إلا أنه عرف كيف يجمع الأصول اللازمة للكتابة عن ابن الأبار ويفيد منها ، فدرس عصره وشخصيته ومؤلفاته دراسة طيبة تدل على اجتهاد وصبر ، وقد أفدنا فائدة كبيرة من هذا الكتاب .

ثم تناول موضوع ابن الأبار الأستاذ ألفريد البستانى فنشر « المقتضب » الذى صنعه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البلفيقى لكتاب ابن الأبار المسمى « تحفة القادم » فى مجلة المشرق (السنة الحادية والأربعون ، يوليو — سبتمبر ١٩٤٧) وقدم له بدراسة قصيرة .